Received:05/24/2025
Accepted:07/11/2025
Published Online:12/25/2025

A Pragmatic Study of the Qur'anic Discourse of Divine Praise of the Prophet Muhammad ﷺ: The Verse "And indeed, you are of a great moral character" as a model

Lakhal Hamza*

Batna 1 University, Algeria.

Corresponding author:
Lakhal Hamza

Email: hamza.lakhal@univ-batna.dz

ABSTRACT

This pragmatic study aims to analyze the Qur'anic verse *"And indeed, you are of a great moral character"* (Surah Al-Qalam, v.4) from both linguistic and ethical perspectives. It explores the dimensions of Qur'anic discourse through divine intent, the impact of the message on the Prophet ﷺ, and its educational and social influence on the Companions and the Muslim community. The study demonstrates that this verse employs various pragmatic mechanisms, such as the style of oath and the use of grammatical emphasis, which reinforce the moral message and strengthen the Prophet's role as an exemplary model. It also highlights the importance of applying this type of analysis in contemporary religious and educational discourse, by drawing on the Prophet's moral exemplariness in shaping both individual and collective behavior. The study concludes by emphasizing the necessity of extending the pragmatic approach to other Qur'anic texts and integrating it into educational curricula, in order to enhance understanding of the texts both religiously and linguistically, while recommending its use in the development of contemporary Islamic discourse.

Keywords: pragmatics, Qur'anic discourse, prophetic ethics, communicative intent, moral exemplariness.

Citation : Lakhal, H., (2025).A pragmatic study of the Qur'anic discourse of divine praise of the Prophet Muhammad ﷺ : the verse " and indeed, you are of a great moral character" as a model .AL-Lisaniyyat, *31*(2), 226-238.

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution ***AL-Lisaniyyat © 1971 by Scientific and Technical Research Center for the Development of the Arabic Language is licensed under Attribution-Non-commercial 4.0 International***

دراسة تداولية في خطاب المدح الإلهي للنبي محمد ﷺ في القرآن الكريم
"وَ إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ" أنموذجا

حمزة لكحل*

جامعة باتنة 01

البريد الالكتروني المهني: hamza.lakhal@univ-batna.dz

تاريخ الاستلام: 2025/05/24 **تاريخ القبول:** 2025/07/11

ملخص:

هدفت هذه الدراسة التداولية إلى تحليل الآية الكريمة ﴿**وَ إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾**(سورة القلم، 4)** من منظور تداولي لغوي وأخلاقي، مستعرضة أبعاد الخطاب القرآني من حيث القصد الإلهي، تأثير الخطاب في النبي ﷺ، وتأثيره التربوي والاجتماعي في الصحابة والأمة. أظهرت الدراسة أن الآية تتضمن آليات تداولية متعددة مثل أسلوب القسم، والتوكيد النحوي، التي تُعزز الرسالة الأخلاقية وتُقوي الدور الدعوي للنبي ﷺ نموذجا يحتذى به. كما أظهرت أهمية تفعيل هذا التحليل في الخطاب الدعوي والتربوي المعاصر، واستثمار القدوة الأخلاقية النبوية في بناء السلوك الفردي والجماعي. خلصت الدراسة إلى ضرورة توسيع تطبيق المنهج التداولي على نصوص قرآنية أخرى، ودمجه في المناهج التعليمية لتعزيز فهم النصوص دينيًا ولغويًا، مع التوصية بالاعتماد على هذا المنهج في تطوير الخطاب الإسلامي المعاصر.

الكلمات المفتاحية: التداولية- الخطاب القرآني- الأخلاق النبوية- القصد التواصلي- القدوة الأخلاقية.

Étude pragmatique du discours de l'éloge divin du Prophète Mohammed ﷺ dans le Coran : le verset « Et tu es certes d'une moralité sublime » comme modèle

Résumé :
Cette étude pragmatique a pour objectif d'analyser le verset coranique : *« Et certes, tu es d'une moralité sublime »* (Sourate Al-Qalam, v.4) sous un angle linguistique et éthique. Elle explore les dimensions du discours coranique à travers l'intention divine, l'impact du message sur le Prophète ﷺ, ainsi que son influence éducative et sociale sur les compagnons et sur la communauté. L'étude a montré que ce verset recourt à divers mécanismes pragmatiques, tels que le style du serment et l'emploi de la confirmation grammaticale, qui renforcent le message moral et consolident le rôle prophétique en tant que modèle exemplaire. Elle met également en évidence l'importance de mobiliser ce type d'analyse dans le discours religieux et éducatif contemporain, en valorisant l'exemplarité morale prophétique dans la construction des comportements individuels et collectifs. L'étude conclut à la nécessité d'élargir l'application de l'approche pragmatique à d'autres textes coraniques et de l'intégrer dans les curricula éducatifs, afin de renforcer la compréhension des textes à la fois sur les plans religieux et linguistique, tout en recommandant son adoption dans le développement du discours islamique contemporain.

Mots clés : Pragmatique- Discours coranique- Ethique prophétique- Intention communicationnelle- Exemplarité morale.

مقدمة

1 .التمهيد

يُعدُّ الخطابُ القرآني والنبوي نموذجًا فريدًا للتواصل الإلهي مع البشر، حيث يجمع بين البلاغة اللغوية والحكمة الأخلاقية، مما يجعله مجالًا خصبًا للدراسة التداولية. وتبرز الأخلاقُ محورٍ أساسيا في هذا الخطاب، لا مجرد قيمٍ مجردة، بل أدواتٍ تخاطبية تُوجِّه سلوكَ المتلقي وتُحدِث تأثيرًا عميقًا في وعيه ووجدانه.

في هذا السياق، تأتي الآية الكريمة: ﴿**وَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ **(سورة القلم، 4)** حلقة وصل بين البعد الإلهي والبشري، حيث يصف الله تعالى نبيَّه محمدًا صلى الله عليه وسلم بوصفٍ أخلاقٍ عظيم، ليس فقط لتثبيته، بل لبناء نموذجٍ يُحتذى به. وهذا يطرح تساؤلاتٍ حول كيفية توظيف الخطاب القرآني للأخلاق آلية إقناعية وتأثيرية، وكيفية تفاعل المخاطَبين مع هذا الوصف في سياقه التاريخي والثقافي.

2. إشكالية البحث

على الرغم من كثرة الدراسات التي تناولت الآية من زوايا دينية أو بلاغية، فإن تحليلها بمنظور التداولية (Pragmatics) يظلُّ مجالًا يحتاج إلى تعميق، وذلك عبر الأسئلة التالية:

- كيف يُنتج الخطاب القرآني دلالاتٍ أخلاقيةً تتجاوز المعنى الحرفي إلى التأثير النفسي والاجتماعي والتربوي؟
- ما الأدوات التخاطبية المستخدمة في الآية، وكيف تُسهم في تعظيم الرسالة؟
- ما دور السياق التاريخي والثقافي في تشكيل الفهم التداولي للآية؟ خاصة أن نزولها كان في مرحلةٍ واجه فيها النبيُّ صلى الله عليه وسلم تحدياتٍ اجتماعيةً ودعوية.
- هل يمكن اعتبار الوصف بـ"خلق عظيم "استراتيجيةً إقناعيةً لتعزيز المصداقية والثقة في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم؟

3. المنهجية

ستعتمد الدراسة على المنهج التداولي، الذي يدرس اللغة في سياقها الاستعمالي، مع التركيز على:

- نظرية الأفعال الكلامية: (Speech Acts) لتحليل القوة الإنجازية للآية، هل هي خبرية (وصفية) أم إنشائية (توجيهية)؟
- مبدأ التعاون: (The principle of cooperation) لفحص مدى توافق الخطاب مع قواعد التواصل الفعّال (كالكيفية والكمية).
- نظرية الالتفات: (Enallage) لاستكشاف كيف يُعبِّر الوصف الأخلاقي عن احترامٍ بالغٍ للنبي صلى الله عليه وسلم.
- تحليل السياق التاريخي :لفهم دور القرائن الخارجية في تشكيل المعنى، مثل ظروف نزول الآية وردود أفعال المشركين.

4. الأهداف المتوقعة

تهدف الدراسة إلى:

- الكشف عن الاستراتيجيات التخاطبية التي تجعل الوصف الأخلاقي في الآية فعّالاً ومؤثرًا.
- ربط التحليل اللغوي بالبعد التربوي، لإظهار كيف يُوجِّه الخطاب القرآني السلوكَ عبر الأدوات التداولية.
- تقديم نموذج تطبيقي لدراسة الأخلاق القرآنية بمنهجية علمية معاصرة تتمثل في البعد التداولي.

أوّلاً: الإطار النظري للدراسة التداولية:

1. تعرف التداولية: بأنها دراسة المعنى في علاقته بالسياق، أي إنها لا تقتصر على البنية اللغوية الظاهرة والحرفية فقط بل تنظر في النوايا، والظروف المحيطة، والمعرفة المشتركة بين أطراف التفاعل (Levinson, 1983) ويعد هذا التوجه استجابة للقصور في تفسير الظواهر الدلالية غير المباشرة في التحليل البنيوي والشكلي.

وقد عرفها جورج يول بأنها: "الفرع اللساني الذي يركز على دراسة المعنى من وجهة نظر مستعملي اللغة وسياقاتهم". (Yule, 1996) أما محمد يحيى فيقول: التداولية تتجاوز الملفوظ في ذاته إلى شروط إنتاجه وفهمه، من خلال تتبع العلاقات بين اللغة والمستعملين وسياق التواصل. (محمد.، 2008)

2. النشأة والتطور: انبثقت التداولية (Pragmatics) فرعا لغويّا مستقلّا، من رحم الفلسفة التحليلية في النصف الثاني من القرن العشرين، حيث ارتبطت نشأتها بتحوُّلِ الاهتمام من دراسة اللغة بمعزل عن السياق إلى تحليلها كأداةٍ للتواصل والفعل في الواقع. وقد أسهم في بلورة هذا الحقل المعرفي عددٌ من الفلاسفة واللغويين، أبرزهم جون أوستن (J.L. Austin) الذي قدَّم نظرية أفعال الكلام (Speech Acts)، مُبيّنًا كيف تُنتِج الألفاظُ تأثيراتٍ عمليةً تتجاوز المعنى الحرفي، مثل الوعد أو الأمر، ثم جاء بول غرايس (Paul Grice) ليُضيف حجرَ أساسٍ آخر عبر مبدأ التعاون (Cooperative Principle) وما يتفرع عنه من مسلَّمات المحادثة (Conversational Maxims)، التي تفسِّر كيف يُدار الحوارُ ضمْنياً بين المتكلمين.

وتطوَّر الحقلُ لاحقًا مع أعمال بينيلوب براون وستيفن ليفينسون (Brown & Levinson) في إطار نظرية التهذيب اللغوي (Politeness Theory)، التي ركَّزت على الاستراتيجيات التي يتبعها المتحدثون للحفاظ على التوازن الاجتماعي وتجنب الإحراج، مثل التلميح أو استخدام التعابير غير المباشرة .

أما في اللسانيات العربية الحديثة، فقد تجلَّت التداولية عبر أعمال أكاديمية حاولت سدَّ الفجوة بين التراث البلاغي العربي (كالاستعارة والمجاز) والنظريات الغربية، مع تركيزٍ خاصٍّ على الأبعاد الوظيفية للغة في السياقات التواصلية. فظهرت دراساتٌ تُحلِّلُ الظواهر التداولية في النصوص الدينية والأدبية، أو تُطبِّق مفاهيمَ مثل التضمن (Implicature) والمرجعية (Deixis) على العربية، كاشفةً عن ديناميات التفاعل الكامنة في التراكيب اللغوية التي طالما اعتُبِرت حياديةً. ومع ذلك، يبقى هذا التوجه حديث العهد نسبيًا في الدرس اللغوي العربي، مقارنةً بالتراكم النظري والتطبيقي في الغرب (سعيد، 2012). هكذا، مثَّلت التداوليةُ جسرًا بين اللغة كبنيةٍ مجردةٍ واللغة كسلوكٍ اجتماعي، وهو ما وسَّع آفاقَ تحليل الخطاب بعيدًا عن القوالب الصورية إلى فَهْمٍ أعمقَ للسياقات الثقافية والنفسية التي تمنح الكلامَ معناه الحقيقي.

3. مجالات التحليل التداولي: تشمل مجالات التحليل التداولي عدة محاور رئيسية، كل منها يسلط الضوء على جانب من التفاعل اللغوي بين الأفراد. ومن أبرز هذه المجالات: (صيني، 2004)

أ. **أفعال الكلام (Speech Acts) :** يُعد هذا المجال من أهم أركان التداولية، حيث يدرس كيفية تحول الأقوال إلى أفعال مؤثرة في الواقع. فالكلام ليس مجرد نقل للمعلومات، بل هو فعلٌ اجتماعي يُحدث تغييرًا في العلاقات أو الالتزامات. وقد صنف أوستن (Austin) أفعال الكلام إلى ثلاثة أنواع:

- **الأفعال التقريرية (Locutionary Acts):** وهي مجرد نطق الجملة بمعناها الحرفي.
- **الأفعال الإنجازية (Illocutionary Acts):** مثل الوعد، والأمر، والتهديد، والاعتذار، حيث يكون للكلام قوة إنجازية.

- **الأفعال التأثيرية (Perlocutionary Acts):** وهي الأثر الذي يتركه الكلام في المتلقي، مثل إقناعه أو تخويفه أو نهيه.

ب. **التضمين التداولي (Implicature):** أطلق هذا المفهوم بول غرايس (Grice)، وهو يدرس كيف يفهم السامع معاني غير مباشرة من كلام المتحدث، دون أن تكون مصرحًا بها. ويعتمد هذا على مبدأ التعاون (Cooperative Principle) ومسلّماته الأربع: الكم، الكيف، العلاقة، والطريقة.

ج. **الافتراضات المسبقة (Presuppositions):** وهي المعلومات التي يُفترض أن المتكلم والمستمع يعرفانها مسبقًا ويشتركان فيها، والتي تُبنى عليها الجملة دون ذكرها صراحة.

د. **المرجعيات السياقية (Deixis) :**

تشير إلى الكلمات التي لا يمكن فهمها إلا من خلال السياق، مثل:

- المرجعيات الشخصية (أنا، أنت، هو).
- المرجعيات المكانية (هنا، هناك.)
- المرجعيات الزمانية (اليوم، غدًا).

هـ. **التهذيب اللغوي (Politeness):** قدمت براون وليفينسون (Brown & Levinson) نظرية تهذيب الكلام، التي تدرس كيف يُعدِّل المتحدثون كلامهم للحفاظ على ماء وجه الآخرين .(Face-saving) وتشمل استراتيجيات مثل:

- التلميح (بدلًا من الأمر المباشر)
- استخدام التعابير الملطفة (هل يمكنك..."بدلًا من" افعل)
- الاعتذار المسبق (عفواً، لكن...)

4. التداولية في السياق العربي: بين التأصيل والتفاعل النظري

شهدت الدراسات اللسانية العربية في العقود الأخيرة اهتمامًا ملحوظًا بحقل التداولية، لا سيما مع محاولات ربط المنظور الغربي الحديث بالتراث اللغوي والبلاغي العربي. وقد اتخذ هذا الاهتمام شكلين رئيسيين:

أ. ترجمة المفاهيم التداولية وتكييفها:

شهدت التداولية العربية جهودًا حثيثة في ترجمة المفاهيم التداولية وتكييفها مع السياق المحلي، حيث تمت ترجمة النظريات الأساسية لأعلام هذا الحقل مثل أوستن (نظرية أفعال الكلام) وغرايس (مبدأ التعاون) وبراون وليفينسون (التهذيب اللغوي) إلى العربية، مما أتاح للباحثين العرب فرصة الولوج إلى هذا الميدان المعرفي. ومع ذلك، واجهت عملية الترجمة تحديًا كبيرًا في توطين المصطلحات، حيث ظهرت ترجمات متعددة للمفهوم الواحد (كترجمة Implicature بـ"التضمين "أو "الإضمار"، وDeixis بـ"الإشارية" أو "السياقية")، مما يعكس محاولات حثيثة لاستيعاب هذه المفاهيم في المنظومة اللغوية العربية. وقد تخطى بعض الدارسين مرحلة الترجمة إلى مرحلة التطبيق العملي، حيث استخدموا هذه الأدوات التحليلية في دراسة الخطاب السياسي والأدبي العربي، مما أسهم في إثراء الدراسات اللغوية المعاصرة. (سعيد، 2012).

ب. التأصيل التراثي: التداولية الضمنية في البلاغة والنحو العربي

يُعد التأصيل التراثي للتداولية في البلاغة والنحو العربي من أبرز الجهود العلمية الرامية إلى الكشف عن الجذور المعرفية لهذا الحقل في تراثنا اللغوي. فقد أظهر الباحثون أن البلاغة العربية الكلاسيكية تضمنت مفاهيم تداولية ضمنية، وإن لم تُصغ بمصطلحات حديثة. فمفهوم "المقام" و"الحال" عند البلاغيين يشبه إلى حد كبير تحليل السياق في التداولية الحديثة، حيث جسدت مقولة "لكل مقام مقال" الوعي المبكر بأهمية السياق في تشكيل المعنى. وفي مجال النحو العربي، وقد حاول عديد الباحثين ربط نظرية أفعال الكلام عند أوستن بالتمييز النحوي بين الجمل الخبرية والإنشائية، حيث تُعد الجملة الإنشائية (كالأمر والاستفهام) فعلاً لغوياً يغير الواقع. كما رأى دارسون آخرون أن نظرية التضمين التداولي (Implicature) لها ما يقابلها في تحليل البلاغيين للمجاز والتلميح، مما يؤكد عمق الرؤية العربية للبعد الوظيفي للغة في السياق التواصلي. (صيني، 2004).

5. التداولية والخطاب القرآني: يمثل المنهج التداولي إطارًا تحليليًا ثريًا لدراسة الخطاب القرآني، حيث يتجاوز التحليل الشكلي للغة إلى استكناه الأبعاد التفاعلية والتواصلية الكامنة في النص. وتنطلق هذه الدراسة من فرضية مفادها أن القرآن الكريم – بوصفه خطابًا إلهيًا موجهًا للبشر – يحمل أبعادًا تداولية متعددة تتجلى في أنماط التواصل المختلفة بين المتكلم (الله تعالى) والمخاطبين (المكلفين).

من الناحية النظرية، يتيح المنهج التداولي مقاربة الخطاب القرآني عبر مستويين رئيسيين:

أوّلاً :المستوى الدلالي الوظيفي: يركز هذا المستوى على تحليل القيمة الإنجازية للألفاظ والتراكيب القرآنية في سياقاتها التواصلية. فالنص القرآني لا يقتصر على نقل المعلومات فحسب، بل يقوم بوظائف إنجازية متعددة كالإقناع والتأثير والتوجيه. وتبرز هنا أهمية نظرية أفعال الكلام في الكشف عن القوة الإنجازية للخطاب القرآني، سواء في صيغ الأمر والنهي أو الوعد والوعيد أو الأخبار والإنشاء.

ثانيًا :المستوى سلوكا التفاعلي: يهتم هذا المستوى بدراسة العوامل السياقية المحيطة بالخطاب القرآني، بما في ذلك المقامات النزولية وخصائص المخاطبين وأحوالهم النفسية والاجتماعية. ويظهر هنا دور المفاهيم التداولية مثل "المقام" و"الحال" في فهم التباين في الأساليب الخطابية بين المراحل المكية والمدنية، أو بين الخطاب الموجه للمؤمنين وللكافرين.

من الناحية المنهجية، تقدم التداولية أدوات نظرية مهمة لفهم آليات اشتغال الخطاب القرآني، مثل:

- تحليل آليات الحجاج القرآني وأساليب الإقناع.
- دراسة استراتيجيات التهذيب اللغوي في الخطاب الإلهي.
- الكشف عن الأبعاد التضمينية والتلميحية في الصيغ التعبيرية.
- تحليل الانزياحات السياقية في استخدام الألفاظ والتراكيب.

تكمن أهمية هذه المقاربة النظرية في قدرتها على تجاوز القراءات التجزيئية للنص القرآني، وتقديم فهم متكامل للغة القرآن بوصفها نظامًا تواصليًا حيويًا يستجيب لمتطلبات السياقات المختلفة. كما تفتح الباب أمام دراسات تطبيقية معمقة يمكن أن تسهم في تجديد مناهج تفسير النص القرآني في ضوء المناهج اللسانية الحديثة (فاطمة، 2018).

ثانيًا: تحليل الآية تداوليًّا:

1. القصد الإلهي: تعظيم مكانة النبي ﷺ وتثبيته

• تثبيت نفسي ورسالي :يأتي هذا الإخبار في سياق تكذيب قريش للنبي ﷺ، إذ تُفتتح السورة بـ﴿**ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ**﴾ **(سورة القلم، 4)** ، ثم تنفي عنه الجنون وتثبت له عظيم الخُلق، وهو ما يمثل تثبيتًا نفسيًّا ورساليًّا له في وجه الكفار. وقد بيّن ذلك ابن عاشور بقوله: "المراد بالخُلق: الدين، أي إنك متخلق بأخلاق الدين وهو الإسلام، وهذا ثناء عظيم يُراد به تثبيت فؤاده ﷺ". (ابن عاشور، 1984).

• تعظيم المكانة أمام الخصوم :الآية تحمل في طيّاتها ردًا ضمنيًّا على الاتهامات التي وُجهت إلى النبي ﷺ، بإبراز مقامه الخُلقيّ في مقابل مزاعم الخصوم. وهذا المعنى قرره الرازي حين قال: "هذا تنبيه على أن ما يقوله الكفار من الطعن فيه كذب صراح، إذ الله تعالى شهد له بعظيم الأخلاق" (الرازي، 2000).

• خطاب تكريمي :يُظهر التعبير "لعلى خُلق عظيم" أوج وقمة الثناء، بإسناد النبي ﷺ إلى "العظمة" نفسها، لا مجرد الحُسن، مما يدل على معيار إلهي في التقييم. يقول الزمخشري في ذلك: "والعظيم في بابه هو الذي بلغ الغاية في جنسه، والخلق العظيم هو الخلق الذي لا غاية وراءه" (الزمخشري، 1987).

2. المخاطَب (الرسول ﷺ): أثر الخطاب في تهيئته نفسيًّا ورساليًّا

- رفع المعنويات: في سياق التكذيب والاستهزاء الذي تعرض له النبي ﷺ في مكة، تأتي الآية الكريمة ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ **(سورة القلم، 4)** باعتبارها أرفع وسيلة دعم وتثبيت، تُظهر عناية الله به وتعزز ثقته بنفسه وبرسالته. وقد ذكر ابن كثير في تفسيره أن هذه الآية جاءت بعد نفي الجنون عنه (الآية 2)، فأعقبها الله بمدح خُلقه لإزالة الأذى النفسي الذي قد يلحقه من افتراءات المشركين. (ابن كثير، 1998)

- تعميق الشعور بالمسؤولية: لما أثنى الله على خُلق نبيه ﷺ بهذا الوصف الجامع، فإن ذلك يحمل في طياته رسالة تكليفية؛ إذ يُطالَب النبي ﷺ بالمحافظة على هذا الخُلق وتجسيده أمام الناس، باعتباره النموذج الكامل. وقد أشار إلى هذا المعنى الرازي بقوله: "مدح النبي ﷺ بهذا الخلق العظيم يدل على أنه هو الذي ينبغي أن يُقتدى به" (الرازي، 2000).

- خطاب شخصي ذو طابع تكليفي وتكريمي: التعبير بـ "وإنك" فيه خطاب مباشر يُخاطب فيه النبي ﷺ على وجه الخصوص، مما يعمّق أثر الرسالة في وجدانه. وقد علّق الزمخشري على هذا الأسلوب بقوله: "في هذا الإخبار توجيه خاص وتكريم بالغ، إذ لم يقل: إنّ له خُلقًا عظيمًا، بل نسبه إلى ذلك علوًا ورفعة"(الزمخشري، 1987)

3. المتلقي (الصحابة والأمة): استثمار الوصف في بناء القدوة الأخلاقية

• نموذج يُحتذى: وصف النبي ﷺ بأنه ﴿**على خُلق عظيم**﴾ يُرسّخ لدى الأمة أن الأخلاق ليست جانبًا عرضيًا في الرسالة، بل تمثل سِمتها الجوهرية، ما يجعل الخُلق مقياسًا تربويًّا وسلوكيًّا. وقد أشار ابن عاشور إلى أن الآية "تشير إلى أن خلقه ﷺ مما ينبغي الاقتداء به"، ويؤكد هذا ما رواه الإمام مالك عن عائشة رضي الله عنها حين سُئلت عن خلق النبي ﷺ فقالت: "كان خلقه القرآن" (بن أنس، 1419هـ).

• دافع للتأسي :تُبرز الآية أهمية الاقتداء بالنبي ﷺ، وتُمهّد لقوله تعالى : ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة**﴾**(سورة الأحزاب، 21)**، وهي الآية التي تُعدّ تأسيسًا واضحًا لمبدأ الاقتداء السلوكي والخلقي. وقد ذكر السعدي

أن قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ **(سورة القلم، 4)** "هو "من أعظم وجوه الثناء الذي يُقتدى به في جميع مجالات السلوك" (السعدي، 2000)

- غرس قيمة الأخلاق في الرسالة :تُبرز الآية أن جوهر الرسالة النبوية ليس محصورًا في التشريع أو الإعجاز، بل في التزكية الأخلاقية، وهذا ما أشارت إليه نصوص كثيرة، منها قول النبي ﷺ" :إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق" (البيهقي، 2003) . فالآية تُشكل تأسيسًا قرآنيًا لهذا التصور الأخلاقي العميق للنبوة.

4. **الاستراتيجيات الإقناعية في الآية:** تعتمد الآية الكريمة ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ **(سورة القلم، 4)** على عدة وسائل بلاغية ذات طابع إقناعي قوي، تسهم في تعزيز مصداقية الخطاب، وتثبيت معانيه في ذهن المتلقي.

- استخدام أسلوب القسم (اللام في "لعلى") :جاءت الآية مسبوقة بالقسم: ﴿**ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ**﴾ **(سورة القلم، 4)**، وهو قسم ضمني يُعزز صدق الخبر، ثم تلاه الجواب" :وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ."واللام الداخلة على "على" هي لام التوكيد المزحلقة، وهي من أساليب التوكيد التي تُستخدم بعد دخول "إنّ" لتقوية الحكم وتثبيته. وقد أشار الزمخشري إلى ذلك بقوله: "اللام دخلت بعد إنّ للدلالة على تأكيد ما أُسند إليه، وهو تعظيم الخُلق". (الزمخشري، 1987).
- التوكيد بـ"إنَّ" و"اللام :"يُعد دخول "إنّ" على الجملة الاسمية من أبرز أساليب التوكيد النحوي في اللغة العربية، لما تحمله من معاني الجزم والتقرير، وهي تؤدي وظيفة تداولية في تقوية العلاقة بين المتكلم والمخاطب عبر التأكيد على الحقيقة المذكورة. وقد اعتبر ابن هشام أن "إنّ" تفيد "توكيد مضمون الجملة، وهو ما يُفيد إقناع السامع المتردد أو المنكر" (ابن هشام، 1998).
- لتضخيم بـ"عَظِيمٍ": وصف الخلق بـ"عَظِيمٍ" (نكرة في سياق المدح) يُفيد التعظيم والتفخيم، مما يُظهر أن أخلاق النبي ﷺ ليست عادية بل فوق المستوى المألوف لبقية المخلوقين.

ثالثًا: دلالات الخطاب الأخلاقي في ضوء التداولية:

1. الأخلاق كرسالة تداولية: كيف يجسّد الخطاب القرآني قيَم الحوار والتأثير؟

إن الآية الكريمة ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ **(سورة القلم، 4)** لا تُقدّم مجرد وصف للنبي ﷺ، بل تؤسس لبنية خطابية ذات وظيفة تداولية مركبة، تُحيل إلى مركزية الأخلاق في عملية التواصل النبوي، وتكشف عن الأثر الإقناعي والسلوكي المتوخى من هذا التوصيف في مسار الحوار مع المتلقين.

فالخطاب الأخلاقي في هذه الآية يُؤطر الرسالة المحمدية في قالب قيميّ حواريّ، حيث تُستثمر الأخلاق وسيلة تأثير، لا كغاية تجميلية، في سياق مشحون بالرفض والخصومة. ويشير علماء البلاغة إلى أن صيغة "على خُلق" تفيد التمكن والاستعلاء، أي إن النبي ﷺ مُتمكّن من هذه القيمة ومُحتوٍ لها، ما يجعله نموذجًا إقناعيًا مؤثّرًا، يفرض احترامه حتى على المخالف والمُنكِر (ابن عاشور، 1984).

ومن منظور التداولية، فإن الرسالة الأخلاقية هنا لا تكتفي بالإخبار، بل تُحدث أثرًا قصدِيًّا مباشرًا في المخاطبين؛ إذ تهيئ السياق لتلقي الوحي والاتباع من موقع الثقة والتقدير، لا الإكراه. وبحسب أوستن وسيرل، فإن مثل هذا الخطاب يُصنّف ضمن "الأفعال الكلامية التأثيرية (Illocutionary Acts) "التي تهدف إلى إحداث تغيّر في المواقف النفسية والسلوكية للمُخاطب (أوستن، 1995).

بل إن هذه الآية تمهّد لاستخدام مستقبلي متكرر لمفهوم القدوة الأخلاقية في الخطاب القرآني، كما في قوله تعالى: ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة**﴾ **(سورة الأحزاب، 21)**، ما يؤكد أن الأخلاق هي محور التداول الدعويّ في الرسالة النبوية، وهو ما يجعلها أداة مركزية في بناء الفعل التواصلي.

2. الآثار التربوية: تفعيل القدوة الأخلاقية في الخطاب المعاصر

تُبرز الآية الكريمة: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ **(سورة القلم، 4)** الأساس الذي يقوم عليه الخطاب التربوي في الإسلام، وهو تجسيد القيم عبر النموذج البشري العملي، لا عبر التنظير المجرد. من هذا المنطلق، فإن تداولية الخطاب الأخلاقي تتجاوز حدود السياق النبوي لتُفعَّل في الخطاب التربوي المعاصر، من خلال ما يُعرف بـ"القدوة التأثيرية" أو "النموذج المرجعي" في التواصل.

فالخطاب القرآني وهو يصف النبي ﷺ بالخُلق العظيم، لا يُقصد به مجرد التوصيف، بل يقوم بعملية غرس تربوي غير مباشر، يتم من خلالها بناء تصور معياري للسلوك، يُقدّم من خلال شخصية حية فاعلة. وقد أكد ذلك ابن القيم حين قال" :كان النبي ﷺ قدوة في أخلاقه كلها، والناس يُعلَّمون بالأفعال أكثر من الأقوال (ابن القيم، 1996)، وفي ضوء التداولية، فإن تفعيل القدوة الأخلاقية يعني تحويل الخصائص الشخصية للنبي ﷺ إلى آليات خطابية وتربوية تصلح لإحداث أثر في المتلقي، سواء في السياق الدعوي أو التربوي. فالتأثير هنا لا يتم فقط عن طريق البيان، بل من خلال النموذج العملي الذي يُقنع بالفعل والسلوك. وهذا يتفق مع ما يقرره بيرلمان في نظرية الحجاج بقوله" :القدوة تُقنع لأنها تجسيد للقيمة " (Perelman, 1969).

ولذا فإن الخطاب التربوي المعاصر، في ضوء هذه الرؤية، مدعوّ إلى الانتقال من الوعظ المباشر إلى التمثيل الأخلاقي الفعّال، بحيث يُستثمر وصف النبي ﷺ بالخُلق في بناء برامج تعليمية وقيمية تُفعّل النموذج قبل المعلومة، والسلوك قبل الشعارات.

5. النتائج

انطلاقًا من نتائج الدراسة، تُقدَّم التوصيات التالية:

1. دعوة الباحثين إلى توسيع نطاق تطبيق المنهج التداولي على مزيد من الآيات القرآنية، خصوصًا التي تتضمن خطابًا أخلاقيًا أو دعويًا، لما لهذا المنهج من قدرة على إظهار الوظائف التأثيرية في النصوص.
2. الاستفادة من التحليل التداولي في الخطاب الدعوي والتربوي المعاصر، عبر استلهام النموذج النبوي في بناء الخطاب، من حيث الأسلوب والمقصد، والتركيز على القدوة الفعلية لا التنظير الوعظي المجرد.
3. دمج التحليل التداولي في المناهج الجامعية، خاصة في أقسام اللغة العربية والدراسات الإسلامية، لتعزيز كفاءة الطلاب في قراءة النصوص قراءة وظيفية ومعاصر

6. الاستنتاج

بعد هذه الدراسة التداولية للآية الكريمة "**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**" **(سورة القلم، 4)**، يمكن استخلاص أبرز النتائج التالية:

1. يتبين من خلال التحليل أن الخطاب القرآني لا يكتفي بنقل المعنى الظاهري، بل يُفَعِّل منظومة من المقاصد التداولية المتعددة، تشمل البُعد **القَصدي (Intentionality)**، حيث يقصد الخطاب دعم النبي ﷺ نفسيًا ورساليًا، و**البُعد السياقي (Contextuality)**، في ضوء ما كان يواجهه من استهزاء وتكذيب، و**البُعد الإقناعي (Persuasive dimension)**، من خلال توظيف أساليب التوكيد والحجاج ضمن البناء اللغوي للآية.

2. أظهرت الدراسة أن المقاربة التداولية تُقدّم أدوات فعالة لفهم أعمق للنصوص الشرعية، من خلال التركيز على الوظائف التواصلية للغة، لا على بنيتها فقط. فالمقاربة التداولية تُبرز كيف أن الأخلاق في الخطاب النبوي ليست عنصرًا جماليا فقط، بل أداة رسالية تؤثر في المتلقين، وتؤسس لنموذج يُحتذى تربويًّا ودعويًّا.
3. تُبرز الآية، في ضوء التداولية، وظيفة القدوة الأخلاقية كنموذج تواصلي فعّال. ومن هنا، فإن استحضار هذا النموذج في الخطاب الإسلامي المعاصر، يُعد ضرورة ملحة لإحياء أثر النبوة في المجال التربوي والاجتماعي، بأسلوبٍ عملي يُخاطب حاجات العصر.

المراجع

- صيني، عبد السلام. (2004). *أفعال الكلام: دراسة في التداولية وتحليل الخطاب*. دمشق: دار الفكر.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر. (1996). *مدارج السالكين* (ط. 3). بيروت: دار الكتاب العربي.
- ابن هشام، عبد الله بن يوسف. (1998). *مغني اللبيب عن كتب الأعاريب* (ط. 2). بيروت: دار الفكر.
- أوستن، جون. (1995). *كيف ننجز الأشياء بالكلام* (ترجمة: عبد الرحمن التليلي وآخرون). تونس: دار الجنوب.
- بن عاشور، محمد الطاهر. (1984). *التحرير والتنوير* (ج. 15). تونس: الدار التونسية للنشر.
- بن كثير، إسماعيل بن عمر. (1998). تفسير القرآن العظيم. بيروت: دار الفكر.
- البيهقي، أحمد بن الحسين. (2003). السنن الكبرى. بيروت: دار الفكر.
- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر. (2000). *مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)*. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- الزمخشري، محمود بن عمر. (1987). *الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل*. بيروت: دار الكتاب العربي.
- عدي، عبد الرحمن بن ناصر. (2000). *تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان*. الرياض: دار السلام.
- العليمي، سعيد. (2012). *البلاغة الجديدة: نحو تصور تداولي*. بيروت: دار الطليعة.
- فاطمة، مليكة. (2018). استراتيجيات التهذيب اللغوي في الخطاب القرآني. *مجلة كلية الآداب*، (76).
- مالك بن أنس. (1419 ه). *الموطأ* : حديث رقم 1628. بيروت: مؤسسة الرسالة.
- محمد، ياسين. (2008). *التداولية وتحليل الخطاب*. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة.

- Levinson, S. C. (1983). *Pragmatics*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Perelman, C. a.-T. (1969). *The New Rhetoric: A Treatise on Argumentation* . Notre Dame: University of Notre Dame Press.
- Yule, G. (1996). *Pragmatics*. london: Oxford University Press.

Romanized Reference

- Ṣīnī, ʿAbd al-Salām. (2004). *Afʿāl al-kalām: dirāsa fī al-tadāwuliyya wa-taḥlīl al-khiṭāb*. Dimashq: Dār al-Fikr.
- Ibn al-Qayyim, Muḥammad ibn Abī Bakr. (1996). *Madārij al-sālikīn* (ṭ. 3). Bayrūt: Dār al-Kitāb al-ʿArabī.
- Ibn Hishām, ʿAbd Allāh ibn Yūsuf. (1998). *Mughnī al-labīb ʿan kutub al-aʿārīb* (ṭ. 2). Bayrūt: Dār al-Fikr.
- Austin, John. (1995). *Kayfa nunjiz al-ashyāʾ bi-l-kalām* (tarjama: ʿAbd al-Raḥmān al-Tilīlī wa-ākharūn). Tūnis: Dār al-Janūb.
- Ibn ʿĀshūr, Muḥammad al-Ṭāhir. (1984). *Al-Taḥrīr wa-l-tanwīr* (j. 15). Tūnis: al-Dār al-Tūnisiyya li-l-Nashr.
- Ibn Kathīr, Ismāʿīl ibn ʿUmar. (1998). *Tafsīr al-Qurʾān al-ʿaẓīm*. Bayrūt: Dār al-Fikr.
- Al-Bayhaqī, Aḥmad ibn al-Ḥusayn. (2003). *Al-Sunan al-kubrā*. Bayrūt: Dār al-Fikr.
- Al-Rāzī, Fakhr al-Dīn Muḥammad ibn ʿUmar. (2000). *Mafātīḥ al-ghayb (al-tafsīr al-kabīr)*. Bayrūt: Dār Iḥyāʾ al-Turāth al-ʿArabī.

- Al-Zamakhsharī, Maḥmūd ibn ʿUmar. (1987). *Al-Kashshāf ʿan ḥaqāʾiq ghawāmiḍ al-tanzīl*. Bayrūt: Dār al-Kitāb al-ʿArabī.
- ʿUday, ʿAbd al-Raḥmān ibn Nāṣir. (2000). *Taysīr al-karīm al-Raḥmān fī tafsīr kalām al-Mannān*. al-Riyāḍ: Dār al-Salām.
- Al-ʿUlīmī, Saʿīd. (2012). *Al-Balāgha al-jadīda: naḥwa taṣawwur tadāwulī*. Bayrūt: Dār al-Ṭalīʿa.
- Fāṭima, Malīka. (2018). *Istrātījiyyāt al-tahdhīb al-lughawī fī al-khiṭāb al-Qurʾānī*. *Majallat Kulliyat al-Ādāb*, (76).
- Mālik ibn Anas. (1419 H). *Al-Muwaṭṭaʾ: ḥadīth raqm 1628*. Bayrūt: Muʾassasat al-Risāla.
- Muḥammad, Yāsīn. (2008). *Al-Tadāwuliyya wa-taḥlīl al-khiṭāb*. Bayrūt: Dār al-Kitāb al-Jadīd al-Muttaḥida.